بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس: 47 **الأستاذ: سماحة العلامة الشيخ معين دقيق**

الدرس: تفسير القرآن الكريم **المبحث: سورة لقمان**

التاريخ:05\04\2022 م **كتبه: عبدالله ضيف الستري البحراني**

ما زال البحث في قوله تبارك: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُون﴾.

أشرت في البحث السابق إلى أن هذه الآية المباركة ومثلها آيات كثيرة بهذا المضمون تدل دلالة واضحة على فطرية العقيدة، وعلى فطرية عقيدة التوحيد.

من جملة الآيات الواردة في هذا المضمون وهي كثيرة، ما ورد في سورة العنكبوت: ﴿وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُون﴾[1] وما ورد في سورة العنكبوت أيضاً: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَحْيا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِها لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُون﴾[2] وفي آية أخرى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيم﴾[3] في هذه الآية الأخيرة ليس فقط هناك اعتراف بالخالقية، بل هناك اعتراف بصفات الخالق السميع العليم.

هذه الآية تعتبر من الآيات التي تشير إلى فطرية عقيدة التوحيد، ويؤيد ذلك ما رواه الشيخ الكليني رحمه الله في كتاب الكافي في حديث صحيح، عَلِيُّ بْنُ إِبْرَاهِيمَ عَنْ أَبِيهِ عَنِ ابْنِ أَبِي عُمَيْرٍ عَنِ ابْنِ أُذَيْنَةَ عَنْ زُرَارَةَ عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام قَالَ: سَأَلْتُهُ عَنْ قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ- حُنَفاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ قَالَ الْحَنِيفِيَّةُ مِنَ الْفِطْرَةِ الَّتِي فَطَرَ اللَّهُ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ قَالَ فَطَرَهُمْ عَلَى الْمَعْرِفَةِ بِهِ قَالَ زُرَارَةُ وَ سَأَلْتُهُ عَنْ قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَ جَلَّ- وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَ أَشْهَدَهُمْ عَلى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قالُوا بَلى الْآيَةَ قَالَ أَخْرَجَ مِنْ ظَهْرِ آدَمَ ذُرِّيَّتَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ فَخَرَجُوا كَالذَّرِّ فَعَرَّفَهُمْ

---

[1] العنكبوت 61
[2] العنكبوت 63
[3] الوخرف 9

وَأَرَاهُمْ نَفْسَهُ وَلَوْ لَا ذَلِكَ لَمْ يَعْرِفْ أَحَدٌ رَبَّهُ وَقَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ يَعْنِي الْمَعْرِفَةَ بِأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ خَالِقُهُ كَذَلِكَ قَوْلُهُ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّه.[4]

فإذن هذه الآية من الآيات التي تدل على فطرية العقيدة، وحينئذ يفرض السؤال التالي نفسه، وهو أن هذا السؤال هل هو سؤال لسان وحوار أم هو سؤال فطرة أيضاً؟ وهذه من المسائل المهمة.

نحن نعرف بأنه على مستوى اللسان المنكر والجاحد والملحد في غاية الكثرة على مر البشرية، وعلى مستوى اللسان يعلن ويجاهر بالإلحاد، فضلاً عن نفي التوحيد، أصلاً لا يؤمن بخالق حتى يوحده أو يشرك به، فعلى مستوى اللسان الإنكار حدث ولا حرج.

ولذا يقرب إلى الذهن خصوصاً بملاحظة هذه الرواية الصحيحة، أن هذه المسألة وهذا السؤال وهذا الجواب هو جواب فطري عملي، ليس في مقام التعبير اللساني، وإنما في مقام العمل. خصوصاً في هذه الصحيحة التي أشار فيها الإمام ﷺ إلى الآية المعروفة في سورة الأعراف: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾[5] تحير المفسرون في فهمها، وتحيروا في الجواب عن شبهة يقتضيها واقع هذه الآية، أن كل واحد منا يمكن أن يقول أنا لا أتذكر، من منا يتذكر أنه في يوم من الأيام سئلنا هذا السؤال وأجبنا ببلى، إذا حصل معنا ونسينا فما قيمته؟ الآن لا أشهد هذه الشهادة، فتحيروا في بيان حقيقة عالم الذر، هل يحمل على معناه الظاهر، بأن كل واحد منا له مجسمات صغيرة وأمثلة صغيرة بإزائه في هذا العالم، وهناك سئلنا وأجبنا أم لا؟

ما يُفهم من كلمات المحققين في هذا المجال، أن هذا السؤال والجواب وهذا الحوار وهذا الاعتراف هو اعتراف جبّلة، اعتراف طينة، ناشئة من حقيقة أنك أيها الإنسان إذا رجعت إلى حقيقتك تجد نفسك تشهد بهذه الشهادة؛ وذلك باعتبار أن الإنسان هو مخلوق فقير ذات تعلق، حقيقة الإنسان هي هذه: ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَراءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيد﴾[6] هذا الفقر هو فقر وجودي، طينة الإنسان -إن صح التعبير- هي شيء ذات تعلق، لا بد أن تتعلق، والشيء الذي تكون حقيقته ذا تعلق لابد أن يرتبط

---

[4] الكافي (ط - الإسلامية)، ج2، ص: 12.
[5] الأعراف 172
[6] فاطر 15

بالغير، فهؤلاء إذا رجعوا إلى قرارة أنفسهم نظير ذلك السائل الذي جاء إلى الإمام الصادق عليه السلام يطلب منه أن يرى الله أو أن يصف له الله تبارك وتعالى كأنه يراه، فذكّره الإمام عليه السلام بحادثة حصلت معه في البحر وأنه كان يغرق هو وجماعته، فقال له: في تلك اللحظة هل تعلق لك أمل بالنجاة؟ فأجاب بالإيجاب، فقال: هذا هو الله، هذا الذي تعلقت به هذا هو الله[7]. ليشير إلى حقيقة معنى قوله: ﴿أَمَّنْ يُجيبُ الْمُضْطَرَّ إِذا دَعاهُ﴾[8] أكثر البشر يدعون من دون اضطرار، فأدعو الله أن يرزقني وأنا متعلق بأول الشهر سوف تأتيني الحقوق، فحينئذ أنا لا أدعو الله، الدعاء الذي يستجيبه الله تبارك وتعالى هو الدعاء التي تتقطع معه جميع الأواصر والعلاقات، عندما أكون مضطراً حقيقياً دعوا الله، فحينئذ يجيبهم الله تبارك وتعالى؛ لأنه عند الاضطرار تعوم ثانية الفطرة، يرجع الإنسان إلى فطرته، فيعرف بمعرفة كينونية جبّلية الله تبارك وتعالى، هذه حقيقة الإنسان.

فإذن مثل هذه الأسئلة ليست محاورة لفظية، نعم مع المشركين ممكن أن تكون لفظية؛ لأن المشرك يعتقد بوجود خالق للكون، غاية الأمر لا يوحّد، لكن مع غير المشرك حتى لو كان من الذين جحدوا هذه الحقيقة بألسنتهم واستيقنتها قلوبهم مع ذلك في مقام اللسان لا يعترف.

فإذن لا يبعد أن تكون هذه المحاورة وهذه الحقيقة الجدلية هي حقيقة فطرية، يرجع الإنسان إلى فطرته، كل مخلوق منا يمر عليه آن من الآنات يرجع إلى فطرته، في هذه اللحظة يقول بلى، في هذه اللحظة يقول الله خلقهن الله؛ لأن الفطرة بطبيعتها واحد من خصائص الفطرة المهمة أنها سريعة الزوال.

المولود عندما يولد في لحظاته الأولى يأخذ الحليب من أمه، هذا أمر غريزي فطري مغروس في جبّلته، لم يعلمه أحد، نعم هو قابل للتطوير، لكن في أصل وجوده مغروس، وفي بعض الأحيان بعض الأمهات يصيبها حدث بعد الولادة فتدخل المستشفى أسبوع أسبوعين عندما ترجع نلاحظ هذا الطفل لا يأخذ

---

[7] التفسير المنسوب إلى الإمام الحسن العسكري عليه السلام، ص: 22. قَالَ الْإِمَامُ ع وَهُوَ مَا قَالَ رَجُلٌ لِلصَّادِقِ ع: يَا ابْنَ رَسُولِ اللَّهِ دُلَّنِي عَلَى اللَّهِ مَا هُوَ فَقَدْ أَكْثَرَ الْمُجَادِلُونَ عَلَيَّ وَحَيَّرُونِي. فَقَالَ [لَهُ]: يَا عَبْدَ اللَّهِ هَلْ رَكِبْتَ سَفِينَةً قَطُّ قَالَ: بَلَى. فَقَالَ: هَلْ كُسِرَتْ بِكَ- حَيْثُ لَا سَفِينَةَ تُنْجِيكَ وَلَا سِبَاحَةَ تُغْنِيكَ قَالَ: بَلَى. قَالَ: فَهَلْ تَعَلَّقَ قَلْبُكَ هُنَالِكَ- أَنَّ شَيْئاً مِنَ الْأَشْيَاءِ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُخَلِّصَكَ مِنْ وَرْطَتِكَ قَالَ: بَلَى. قَالَ الصَّادِقُ ع: فَذَلِكَ الشَّيْءُ هُوَ اللَّهُ- الْقَادِرُ عَلَى الْإِنْجَاءِ حِينَ لَا مُنْجِيَ، وَعَلَى الْإِغَاثَةِ حِينَ لَا مُغِيثَ.

[8] النمل 62

الحليب؛ لأن من خصائص الأمر الفطري أنه سريع الزوال، المولود يولد على الفطرة وأبواه يهودانه أو ينصرانه[9].

لكن هذا الأمر السريع الزوال أو بالدقة بالتعبير العلمي هو لم يزل، هو غلفته الغفلة، عند التنبه أي: عند الصدمة، كما في نظرية الصدمة، هذا الفرد يحتاج إلى صدمة، عند الصدمة تطفو ثانية الفطرة، فيقول بلى، فيقول خلقهن الله.

فإذن هذه الحوارية وهذه الجدلية يمكن أن تحمل على معناها الحقيقي مع المشرك، وإذا عممناها على الجميع فهي حوارية فطرية، يرجع الإنسان إلى قناعته.

نلاحظ في المجتمعات البشرية أكثر إحصائيات حالات الانتحار تصيب علية القوم، الأغنياء، الممثلة الفلانية والفنان الفلاني وما شابه ذلك؛ لأن هؤلاء لما تزيوا بزي غير زيهم يصلون إلى مرحلة يكرهون أنفسهم، بحثوا عن المال، فبالنتيجة وجدوا أن ليس هذا هو الذي يتناسب مع جسدهم ومع روحهم، بحثوا عن الشهرة وغيرها وعندما وجدوها وصلوا إلى طريق مسدود؛ لأنهم لم يلتزموا ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَراءُ إِلَى اللَّهِ﴾ حقيقة هذا المخلوق أنه مجبول على التعلق بقدرة خلقته، هذه هي الفطرة، هذه هي حقيقة المعرفة التي يشير إليها الإمام عليه السلام في هذه الرواية.

[9] علل الشرائع، ج2، ص: 376. أَبِي رَحِمَهُ اللَّهُ قَالَ حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ يَحْيَى عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ أَحْمَدَ عَنْ سَهْلِ بْنِ زِيَادٍ عَنْ عَلِيِّ بْنِ الْحَكَمِ عَنْ فُضَيْلِ بْنِ عُثْمَانَ الْأَعْوَرِ قَالَ سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ ع يَقُولُ مَا مِنْ مَوْلُودٍ وُلِدَ إِلَّا عَلَى الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ وَ يُنَصِّرَانِهِ وَ يُمَجِّسَانِهِ وَ إِنَّمَا أَعْطَى رَسُولُ اللَّهِ ص الذِّمَّةَ وَ قَبِلَ الْجِزْيَةَ عَنْ رُءُوسِ أُولَئِكَ بِأَعْيَانِهِمْ عَلَى أَنْ لَا يُهَوِّدُوا وَ لَا يُنَصِّرُوا وَ لَا يُمَجِّسُوا فَأَمَّا الْأَوْلَادُ وَ أَهْلُ الذِّمَّةِ الْيَوْمَ فَلَا ذِمَّةَ لَهُمْ.